الشعر الشعبي خلال المقاومات الشعبية الجزائرية
بين آفاق الرؤية الشعرية و تمثيل الذاكرة الشعبية

Popular poetry during the Algerian popular resistance Between the horizons of poetic vision and the representation of popular memory

1د / نايــل سفيـان*

قسم اللغة العربية وآدابها جامعة الجلفة (الجزائر)،s.nail@univ-djelfa.dz

2 أد / حـشــلافي لخضـــــر

قسم اللغة العربية وآدابها جامعة الجلفة (الجزائر)،hachelafi2016@gmail.com

تاريخ الارسال2024/02/14 تاريخ القبول 2024/04/20 تاريخ النشر2024/11/01

ملخص:

كان للشعر الشعبي دور كبير إبان الثورات الشعبية الجزائرية، فهو كان يمثل لسان حال المقاومات الشعبية أنذاك، حيث قام الشعراء بالدفاع عن المقومات الأمة والوطن، وجعلوا شعرهم سلاحا قائما تجاه العدو المستدمر، ولم يدخروا جهدا في التنديد بالمستعمر الذي داس على كرامتهم، وحاول طمس هويتهم وسلبهم أرضهم، فكان لكل مقاومة شعبية جزائرية شعراء ينافحون ويدافعون عنها، ويشحذون همم الثوار والمجاهدين للاستبسال والجهاد والاستشهاد في سبيل الله والوطن، وقد دوّن هؤلاء الشعراء الشعبيون مآثر خالدات من بطولات المقاومين الجزائريين، وكتبوا في صفحات تاريخ الجزائر بدماء الشهداء الذين قدموا الغالي والنفيس لنصرة الحق .

الكلمات المفتاحية: الشعر الشعبي ،المقاومات الشعبية الجزائرية، الرؤية الشعرية ، الذاكرة الشعبية

summary:

Popular poetry had a major role during the Algerian popular revolutions, as it represented the mouthpiece of the popular resistance at that time, as the poets defended the foundations of the nation and the homeland, and made their poetry a standing weapon against the destructive enemy, and they spared no effort in denouncing the colonialist who trampled on their dignity, and tried to obliterate their identity And he robbed them of their land, so every Algerian popular resistance had poets who fought and defended it, and they galvanized the determination of the revolutionaries and the Mujahideen for courage, jihad, and martyrdom for the sake of God and the homelan.

key words: Popular poetry, Algerian popular resistance,Poetic vision, popular memory

*المؤلف المرسل: **د / نايــل سفيـــــان**s.nail@univ-djelfa.dz

مقدمة:

إن الشعر الشعبي إبان الثورات الشعبية الجزائرية في القرن التاسع عشر ظل يعبر عن آلام وآمال الطبقات الشعبية الجزائرية المختلفة بكل درجاتها ومراتبها، وبقي يعبر عن أمانيها وهمومها وأفراحها وأتراحها، وخلد فيضا من المكرومات الفاضلة التي تحلى بها الثائرين، وعن مدى رفضهم الذل والخضوع في وجه المستبد الطاغي، ولعل ايمان شعراء الشعر الملحون قادهم إلى النظر إلى الاستعمار على أنه كفر، وغزو فاستوجب منهم، فالشاعر "منطلقا من إيمانه القوّي الذّي يربطه بعقيدته الاسلامية من جهة، وبوطنه الذّي يدافع عنه بكلّ تفانوصمود[1]" ، جعله ينهج منهج السلف من المسلمين في الدفاع عن الدين وعن أرضه وعرضه وشرفه، ولا يستقيم له عيش إلى في ظلال الحرية والامن والاطمئنان، وفوق مراتع الحب والسعادة، فتشكل لدى شعراء المقاومات الشعبية ؤرى خاصة تملكتهم، وأينعت في صدورهم أهمية الحفاظ على الدين الإسلامي وتخليص مجتمعهم من براثن الاستعمار.

2- دور الشعر الشعبي في المقاومات الشعبية الجزائري:

لم يكتف شعراء الشعر الشعبي بنقل تأريخ الأحداث والوقائع الثورية للمقاومات الشعبية الجزائرية، بل شاركوا في صنع أمجاد الثورات الشعبية جهادا بالنفس وبالسلاح، فتأججت في ذواتهم روح القتال ومساندة رفاقهم من المجاهدين، إذ شكل هذا الشعر بالنسبة إلى الذات الجزائرية "متنفسًا من الاحتقان والمعاناة التّي سببها الاستعمار الفرنسي، كما أدى دورًا خطيرًا في الحفاظ على قيم الهوّية الوطنية ودعم القيم الاسلامية والدعوة إلى الكفاحضدالمستعمر"[2]، وهذا ما جعل للشعر الشعبي الجزائري " قيمة حضارية خالدةوجوهر تاريخي عظيم الدلالة، يخلد مآثر الشعوب بصدق، ويعبر عن اتجاهاتهابصراحة وصفاء"[3]، فصوت الشعر الشعبي لم يخبو ولم يخفت رغم تعنت الطغات.

إن الشعر الشعبي واكب تاريخ المقاومات الشعبية التي اندلعت عبر ربوع البلاد، إذ كان دور الشعراء في تلك الحقبة العسيرة أنهم " كانوا يؤثرون بقوة في السامعين، وقد لا نشك في ان هؤلاء الشعراء الجوالين قد ساهموا في إيقاظ ضمائر الجزائريين وتطوير وعيهم السياسي"[4]، فرفضوا الاستعمار جملة وتفصيلا من خلال قصائد شعرية تنبض حرارة بالوطنية؛ جادت بها قرائح شعراء تعظيما للانتصارات التي حققها المقاومين، فحرصوا على كتابة تاريخ الثورات الجزائرية بالذود عن حياض الوطن بشعرهم، وبغية ترك مآثرهم الخالدة للخلف للعبرة والدفاع عن أمجاد الأجداد، ومن بين الشعراء الذين كان لهم صيت قوي في المقاومات الشعبية الجزائرية نجد عبد القادر الوهراني، ومحمد بلخير، وبن كريو وأمحمداللّيشاني، وعلي بن الشرقي الفلياشي ، وغيرهم من الشعراء؛ وقد كتبوا في آفاق الثورات الشعبية طموحات النخوة العربية الخالصة الرامية إلى الحفاظ على المكتسبات القومية والوطنية، ومكتسبات تحفظ لهم تواصلهم الديني؛ بما يربطهم بالأمة الإسلامية .

من يتابع أحوال الشعر الشعبي الجزائري يجده زاخرا بشتى الموضوعات، وألوان متعددة من فيضوات الأغراض الشعرية، ويجد فيه من ألوان الحماسة الشعرية الكثير، إذ يجد الشّاعر الشّعبي في قصائده يسرد قصص الأبطال وما

قدموه من تضحيات، ويصف الأحداث و يصوّرها كما شاهدها أو كما رويت له ؛ فيحثّ "شباب الجهاد على الصّبر و الثّبات، ويبعث الحمية في العواطف "[5]، وظل الشاعر الشعبي يصور أحاسيس الأهالي والمواطنين، ويلهب مشاعرهم، فيذكرهم بالاستشهاد في سبيل الله، ليدفعهم إلى الجهاد والتضحية من أجل تحقيق حياة كريمة، والشاعر الشعبي لايهدف من وراء نظم الشعر إلى كسب الشهرة، أو الجاه وإنما يهدف من وراءشعره إلى تصوير مأساة غزو استعماري، استهدف دينه و ثقافته و عرّض حياةمواطنيه إلى البؤس و حول أمنهم إلى خوف، ورعب وشقاء ودمار[6]. ومما جادت به قرائح الشعراء ما قدمه الوهراني في قصائده الجميلة المتينة الرصينة، يقول في إحدى مطولاته الشعرية الشعبية:

الأيـام يا اخواني تبـدل ساعـاتها والدهر ينقلب ويولي في الحين

بعد كان سنجاق البهجة ووجاقها الأجناس تخافها في البر وبحرين

أمنـين راد ربي ووفى ميجـالها واعطاوها أهل الله الصــالحين

الفرانسيس حرك لبــها وخذاها لا هي ميات مركب لاهي ميتين

بسفاينـــه يفرص البحر قبالها كي جا من البحر بجنـود قويين

غاب الحساب وادرك تلف حسابها الـرومجاو للبهجة مشتدين

راني على الجزاير يا ناس حزين

أهنـا الناس تظهر وتبان أخبارها موت الجهاد خير من اللي حيين

حور الجنان راها تزغرت بأصواتها أبــواب النعيم للأمة مفتوحين

المــوت لازمتنا واحنــايا زادها والصـبر لا تكونوشي خيفانين[7]

تُصور هذه القصيدة احتلال الجزائر ومقاومة الأهاليللمحتل بكل شجاعة، ثم كيف عمت الأحزان مدينة الجزائر، بسبب ممارسات المستعمر الوحشية في حق الأهالي الأبرياء، وتعد القصيدة وثيقة تاريخية تحاكي المأساة الكبرى التي عاشها الشعب قهرا وظلما من طرف المستبد، وهي في نظر عبد المالك مرتاض "ومما نقول في هذه القصيدة الشعبية العجيبة التي لا نجد لها ولنؤكد ذلك تارة أخرى، نظيرا فيما اطّلعنا عليه من شعر المقاومة شعبيا وفصيحا معا"[8]، ولأنها صورت أحداث جسام مرت بها الجزائر في الحقبة الاستعمارية.ولعل الكثير من الاشعار

الشعبية مفقودة النسب، فهي إما عناء وترجيعات جماعية استلمتها الفئة الشعبية تعبيرا عن الحزن أو الفخر ببطولات المقاموين ، وقد أورد عبد القادر خليفي شعرا كانت تتغنى به النسوة في تجمعاتهن بمنطقة القصور في الجنوب الغربي، أغاني شعبية التي تصور الشيخ بوعمامة بطلا لا يقهر يثير الرعب والهلع في صفوف الأعداء ويشتت شملهم:

الشيخ بوعـمامة حـرّك تحريكتين طيّح مائتين

الشيخ بوعمامة حرك تحريكتين نشهم كي الذبان

الشيخ بوعمامة ياهراس القرون ويادمّارالعديان[9]

ويقول فيه أيضا:

بوعمامة ذرية حبيب الأنصار ** بوه بين أكتاف النبي المعصوم .

. بوعمامة يعطي تسبيح الأذكار ** بوعمامة سره في الناس معلوم[10]

اتسمت القصائد الشعبية بالبساطة واللغة العامية السهلة الميسروة، فيها تمجيد أبطال المقاومات كالأمير عبد القادر، والمقراني والحداد والشيخ بوعمامة، وكذا التعبير عن مآسي الشعب الجزائري، وانعكست فيها الروحين الدينية والوطنية، وهي تقدم تصوراتها التاريخية للوطن، ولعل سمات يتوفّر عليها الشّعر الشعبي من بلاغة الكلمة وسهولة فهمها في الأوساط الشعبية، ومما كان لها قوة تأثيرها، والأكيد أن التغني بالمجاهد وبطولات الثوار ساهمت في توسيع دائرة الالتفاف حول المقاومات الشعبية

3- ملامح الرؤية الشعرية للشعر الشعبي إبان المقاومات الشعبية:

تعكس القصائد الشعبية الجزائرية التي كتبت في زخم الحياة الحربية للمقاومات الشعبية تنوعا تاريخيا، ونماء حضاريا واستمرارا ثقافيا على مستويات الفن الشعري الشعبي؛ "الشعر الشعبي والذّي يسمّى كذلك الشعر الملحون جزء هام من الذاكرة الشعبية، ومقوّم أساسي من مقوّمات الشخصية الوطنية، ظل المرآة الصادقة التّي لم تستطع أن تعبث بها يد الاستعمار الذي عمل كلّ ما في وسعه لتدمير كل مقوّمات هذا الشعب، وكلّ ما يعبر عنها منذ أن وطئت أقدامه أرض الجزائر المجاهدة"[11]، وهكذا ارتبط مفهوم الثابت في هذه المرحلة بالدّين والوطن الذّي دافع عنهما الشعب الجزائري بالنفس والنفيس، لأنّ الإسلام في اعتقاد الجماهير الشعبية هو "المعيار الأساسي الذّي يحدّد هوّية انتساب الفرد الجزائري، وليس مجرّد الانتماء إلى الوطن، ومن هنا كان الجهاد في سبيل

الله والدفاع عن الإسلام هو الهدف الأسمى من النضال، وبتعبير آخر كانت الفكرة الوطنية مزيجا من العقيدة الدينية والروح الوطنية"[12]، مما ساهم في خلق تجربة شعرية شعبية ثورية، وأخذت تتنامى على مستوى الشكل والمضمون؛ فنتج عنها أشكال شعرية تمتزج فيها الروح الوطنية بالعقيدة الدينية. يقول ابن مسايب :

باسم الله بْدِيتْ القوْل يا ناس صَلوا على الرسول

اللي مات للجنة والقصور وسبعين من بَنات الحور[13]

تتبع التلي بن الشيخ أشعار شعراء المقاومات الشعبية الجزائرية، وكشف عن بعض الملامح الأكثر ظهورا فيها، حيث لاحظ أن العقيدة والوطنية متصلان ببعضهما البعض في يتقاسمها جميع الشعراء الشعبيين في فترات مختلفة من تاريخ المقاومات الشعبية المشهورة، وغن كان بن خلوف سبقهم جميعا، إذ كان يحمل هما قوميا ووطنية، تتنازعه نوازع الدين الإسلامي؛ "لقد لاحظنا أن مفهوم الوطنية عند لخضر بن خلوف نابع من عقيدة دينية تعطي المواطنة بعدا إسلاميا أوسع من مفهوم الوطنية المعاصرة الذي يرتبط بفكرة سياسية ، تنطلق من الولاء والانتماء إلى جماعة تعيش فوق مساحة من الأرض معروفة بحدودها الترابية، وتربط مصالحها بنظام اجتماعي معين بغض النظر عن المعتقدات الدينية "[14]، ولعل المعطى الديني يشكل آفاق التجارب الشعرية الشعبية، وهو ديدنها وأساسها الذي ترتكز عليها في الكثير من مناحيها المضمونية، وحتى الشكلية، في الاستهلالات الشعرية الشعبية بالوقوف في مستهل القصيدة بالصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم، ولعل تلك الافتتاحيات تنبئ عن مقدرة الشاعر في فهم فحوى المقاومة والثورة والجهاد، فهم عادة تسلموا راية الجهاد من النبي صلى الله عليه وسلم، ومن صحابته الكرام، فالشعراء يرون ذلك مفتاحا يستطبون به أفئدة المستمعين، ويستميلون أذهانهم وقلوبهم، فتتوسع دائرة الالتفاف حول المقاومات الشعبية؛ وينشدون الحق فيها حتى يهرع جموع الشعب لمد يد العون. يقول ابن كريو:

حسراه وين دار السلطان و ناسها صدوا وجاواليها أوجوه اخرين

حسراه وين بايات مع قيادها يا من درى على ذوك القصباجين

حسراه على السراية و على حكامها و على مواضع الحكم المعزوزين

حسراه على المفاتة وعلى قضاتها علمات البلاد مصابح الدين

حسراه على الجوامع وعلى خطابها و منابر الرخام اللي مرفوعين

حسراه على الصوامع وعلى آذانها و على اد رساها ثم الحزابين

حسراه على المساجد غلقت بيبانها ضحاوا اليوم ياسيدي منسيين

حسراه وين تحفاتها وين ديارها وين البيوت وغرف المحصنين

في القصيدة يتأسف بن كريو على حال الوطن بعد ان وطئتها أرجل المستعمرين، وعاثوا فيها الفساد وحولوا معالمها الجميلة التي كانت تتزين بها، فبكى تلك المعابد (المساجد) التي لطخت واستبيحت، ويتحصر على نبشهم

لقبور المسلمين، ويبكي حال الفقهاء و القضاة، و تزداد حالة الأسى لوعة على تحف البلاد الثمينة و ديارها الباهية الزاهية التي طمست أنوارها.

إن الرؤية الشعرية منفتحة على مقصدية راهنة متعلقة بظروف إنتاج هذه القصيدة، فهو يضمر مقاصده الدلالية بجملة من الرسائل والخطابات الثقافية الكامنة خلف رؤاه الشعرية، فجعلها ناطقة بالصور المدهشة، وهذا يستدعي من المتلقي أن يفككها ويقرأها وفق مرجعيات ثقافية تسمح له بفهم وتاويل وتفسير سنن القصيدة الملقات إليه فيتخذ منها سببا يستند إليه في تعامله مع الأمر الواقع، أن اللحظة التي داهمت الشاعر تغولت في نفسيته وأحاطت بهالتها الصاحبة، فخطفت هدوءه، وزعزعت أركان وجداناته، وظلت الغصة تشتد في حنقه حتى اوجد لها سبيلا لتخرج من عنفوانه، فأرسلها آهات دامية لعلها تخفف ما به من ألم. ويمضي ابن كريو في سرد أحوال سقوط المدينة، وشد ازره بالتقوى، ووقف يدعوا للجهاد بغية صد المستدمر الغاشم.

إن الرؤية الشعرية لدى شعراء المقاومات الشعبية الجزائرية جاءت غنية بالدلالات والإيحاءات، والمواقف التي تتمحور حول قضيتين: قضية صراع بين المستبد الغاشم وكفاح شعب أبي يرفض الخضوع والخنوع، وتشكل هذه القضية أبعادا وتموجات وطنية، بالرغم ما يحدوها من إنهزامات كثيرة، والقضية الثانية دينية عقدية؛ حين راح الشعراء يصورون الوعي الحقيقي لتاريخ النضال الشعبي الجزائري وقيمه العربية وقيمه الدينية، بما يحفظ له انتماءه إلى الأمة الإسلامية، و كل هذا كان ملهما للشعراء في تلك الفترات التاريخية، التي تعد مفصلية في تاريخ الادب الشعبي الجزائري، إذ تبناها الشعراء وحولها إلى سمفونيات في حقل الفن الشعري بغنائية مدهشة لا تزال ترتفع بشجاها الفني، من ذلك قول الشاعر محمد بلخير:

كلي مكان في مجالس بين خوان*وعلى الكرسي يخاطب بحديث الهادي**

عنده فقرا ضراف فالحضرة فرسانوصحاب التربية على شيخ سيادي**

ناس السماحات راكبين على ربعان***بالهمة والسلاح من كلش يقدي**

شغل المجبودوالسطاير بالميزان**وركاب جديد فات نجمة بلهادي**

ومكاحل ساسبو تلوح بالنيشان***وقلنزي قاس بالبصر ضرب الفردي**

يجيوهالزايرين من بر الـسودان**وتجيه ركاب شامي والبغدادي**

وتجيه ركاب من تكرت وأهل الحرشان ****وتجيه ركاب من طرافي وحميان

وتجيه ركاب حايطة الساحل والراحل والقيطان

وتجيه ركاب من ذاك جاي وذا غادي.[15]

إن مفاتيح الرؤية في هذه القصيدة تمنح الشاعرَ مجالا واسعا وحرية أكبر؛ لتوصيل أفكاره وتصوراته ومواقفه من خلال تجارب إبداعية فاعلة، تجسد حقيقة التوجه الفكري والعقدي والسياسي للشاعر، فمحمد بلخير كان يمثل لسان حال الشيخ بوعمامة قائد الثورة الشعبية لأولاد سيد الشيخ، فالقيادة في الثورة تمثل رؤية شعرية كاملة بطاقاتها الفاعلة داخل المؤسسة الاجتماعية الثائرة (ثورة أولاد سيد الشيخ)، فالهالة الشعبية التي تحيط بالشيخ بوعمامة تمثل توجيهات دينية وفكرية وسياسية، وهذا ما كان يتمتع به الشيخ بوعمامة، هو من العارفين المتدينين، له كاريزما خاصة اجتمعت له كافة أسباب القيادة في هذه الثورة الشعبية، وذاع صيته في الأرجاء، حين كانت له مجالس للذكر والتعليم (**كلي مكان في مجالس بين خوان، وعلى الكرسي يخاطب بحديث الهادي**) فكان داعية له مكانته الدينية حتى في الكثير من الأوطان العربية (**يجيوهالزايرين من بر الــسودان، وتجيه ركاب شامي والبغدادي**) ناهيك عن شهرته التي طارت في أقطار الجزائر قاطبة، وهو الذي اجتمعت له الكثير من القبائل التي جاورت قبيلة أولاد سيد الشيخ ، من بين تلك القبائل المطرفية وحميان والحرشان؛ وهي قبائل عريقة لها مكانتها وقيمها في الجهة الغربية للجزائر آنذاك.

لقد شارك محمد بلخير مع رفاقه في معارك كثيرة، بجنب الشيخ بوعمامة قائد ثورة أولاد سيد الشيخ، فنظم شعرا زاهيا في التغني ببطولات أولاد سيد الشيخ وقائدهم الشيخ بوعمامة، ولم ينقطع عن قول الشعر والتغني به، فجاءت الكثير من قصائده تتحدثعن موضوع الكفاح والاستنفار للحرب، وكان شعره سلاحا يدافع به عن الحق المسلوب، وبغية التحرر من العبودية والاستعمار، وشهد لهذا الشاعر (جاك بيرك) بقوله: "إن بلخير منشد الشجاعة البدوية، شادي بطولة البدو الرحل والشوق الأبدي ليقترح علينا فيما يمليه من صيغ خالصة خطاب الغد ورسالة الأبد"[16]، ومن بين قصائده الجميلة تلك التي رثى بها الشيخ بوعمامة رحمة الله عليه، واسترسل بعدها في ذكر مناقبه وذكر فراسته وحكمته، وجهاده وبطولاته مع أصحابه من المجاهدين، يقول فيها:

عزوني يا الناس في شيخ العربان**عزي وعنايتي ومفتاح ورادي**

تبكي عيني بوعمامة طول زمان**تبكي عيني على مدكس ميعادي**

تبكي عيني عليه ما طال الزمان**طول الحياة والدموع على خدي**

تبكي عيني عليه مفتاح البيبان**ركن الرحمة لي على الخير يسادي**

بعد نزوهيحضيت في حالة لحزان**وما لي تدبير واش نفعل يا وعدي**

فزمانه كنت نحسب ولد السلطان**فالمملكة وزير تحت حرم سيدي**

ما نحرث ما نجوع من فضل الله شبعانما نرحل ما نطول شقى بولادي**

ما نحزن ما نحير من خوف العديانما عندي غير نظرتو هي زادي**

لمرقدني على قفايا في لمان**لمورثني بلاد من غير بلادي**

طيب قلبي على لهوب بلا نيران**ساكن لي فالضمير مشعاله قادي**

مثل المطعون شارب الرقط وسكران**سم ثعابين قاطع وصال كبادي**

عياو يرادوه يعطيهم لمان***قاللهم يا هلاكم من بارودي**

عياو يراودوه بثقل وثمان**قاللهم شهدووخوذو من عندي**

كلي مكان في سراسير القومان**بعلامه للجهاد قادم لأعادي**[17]

إن الحديث عن الشعر الشعبي الجزائري إبان الثورات الشعبية الجزائرية والمقاومات الكبرى، فإن الشعر كان له معين لا ينضب، ولعّل السبب في هذا يعود إلى اعتباره الآلية التي ظلت تسلس أخبار المقاومات الشعبية، ويحمل في جنباته أحوال الشعب عامة، لذلك كان الشعر يمثل مكوّنا أساسيا من مكوّنات الانتماء الثقافي والحضاري للشعب الجزائري،"ولعّل قصائد الملحون تشكل جزءًا هامًا وكبيرًا من هذا الأدب الذّي يعدّ أحد ملامح تاريخنا، وأحد الأجزاء العامّة منه، فهو يشكل وجها من وجوه الحياة التّي عشناها ونعيش جزئياتها، ليظل شعبنا ممتلكًا لمقومات وجوده"[18] . فصار المؤسسة الرسمية والذي يستند إلى الوثائقالمحفوظة في دور الأرشيف "أما التسجيل الشعبي للتاريخ فهو في حقيقةأمره قراءة للتاريخ من وجهة نظر صناعه الحقيقيين من ناحية ،ولصالح الجماعةمن ناحية أخرى، وهذه القراءة التي تدخل ضمن الموروث الشعبي ،وهو تعبيرتلقائي عن الناس في حياتهم ومعايشهم، وهو أيضا تعبير عن آرائهم ورؤاهم لأحداث تاريخهم"[19].لأن المستعمر استهدف كل مقومات الأمة "وعمل المستعمر بخبث على القضاء على كلّ المؤسسات التّي يمكن أن تؤدي دورًا ثقافيًا أو حضاريًا، وكادت العربية والثقافة الإسلامية أن تنجلي نهائيًا، لولا بعض الزوايا وجمعية العلماء المسلمين»[20]. يقول عبد القادر الوهراني :

الأيـام يا اخواني تبـدل ساعـاتها والدهر ينقلب ويولي في الحين

بعد كان سنجاق البهجة ووجاقها الأجناس تخافها في البر وبحرين

أمنــين راد ربي ووفى ميجـالها واعطاوها أهل الله الصــالحين

الفرانسيس حـرك لبــها وخذاها لا هي ميات مركب لاهي ميتين

بسفاينـــه يفرص البحر قبالها كي جا من البحر بجنـود قويين

غاب الحساب وادرك تلف حسابها الـرومجاو للبهجة مشتدين

راني على الجزاير يا ناس حزين[21]

القصيدة تصور سقوط مدينة الجزائر في يد المحتل الفرنسي ، فعلى عادة شعراء الملحون انطلق الوهراني في استهلاله بالصلاة والتسليم على المصطفى صلى الله عليه وسلم ومدحه عليه صلوات ربي وسلامه عليه، ثم انطلق إلى الموضوع الأساسي وهو سقوط الجزائر في يد الفرنسيس، وبدا يصور مداهمة الفرنسيين للجزائر بسفنهم الحربية وقوة جيوشهم الاستعمارية، وعن تعطشهم لدخول هذه الأرض التي كانت مطمئنة.

تحمل القصيدة هما قوميا ووطنيا، إذ فيها يتبين مدى ارتباط الشاعر الشعبي بقضايا بني جلدته، وتعكس الارتباط الداخلي الوثيق بين أفراد الشعب الجزائري وطناً ولغةً وديناً، وتتجلى هذه القيم والمبادئ عند الشعب الجزائري من خلال "ارتباطه بالقضايا الوطنية التي يعيش عليها شعب يريد الاحتفاظ بمقوماته النفيسة وذخيرته الروحية وطابعه الأصيل"[22]. فالتفاني والحب والإخلاص كلها نابعة من سريرة روحية خالصة، ولعل الالتفاف حول مقومات الامة كان الشغل الشاغل والهاجس الذي يؤرق الشعراء وينمي فيهم روح الجهاد. في سبيل الله والوطن، وساهم الشعر الشعبي في إيقاظ الهمم ونشر الوعي الديني والوطني، من خلال بعث "روح إسلامية أصيلة واعتزاز كبير بحبّ الوطن وامتزاج ذلك في وحدة متكاملة، هي التي يؤمن بها الشاعر الشعبي امتدادا لرسالة الإسلام، التي حققها المسلمون الأوائل مما يضفي عليها قدسية في سبيل الحرية والكرامة، ويحفز الإنسان للإصرار على النصر"[23]. وتلك هي أواصر العز والأنفة التي ناظل من أجلها الأبطال الغطاريف، وصدوا الكثير من الحملات الشعواء للمستدمر الغاشم، فبين السيف والبندقية والقلم وصوت الشعر الشعبي تلاقح تام ، وكل في فلك الجزائر ظلوا يهيمون.

وإذا كان التاريخ باعتباره أحد الوسائل التي تساعد الإنسان على فهم حقيقة ذاته بربطها بالماضي ووصلها بالمستقبل فقد "تحددت منذ البداية قيمة المعرفة التاريخية بوظيفتها الثقافية، الاجتماعية، ومن ثمة كانت المعرفة التاريخية ملازمةلوجود أية جماعة بشرية أيا كانت درجة نموها الحضاري و لأن الإنسان هوالكائن الوحيد الذي يدرك حقيقة الزمان ويعي أن هذا الزمان يحمل التغيير والتبدل فقد حرص على أن يسجل حقائق حياته باستمرار"[24]. يرى أبو القاسم سعد الله أن الشعر الشعبي كان يمثل سجلا لتاريخ الامة الجزائرية في مناحي عدة،

يقول: " حقا إن الشعر الشعبي قد سجل كثيرا من الحوادث السياسية و العسكرية، كما كان سجلا للنبض الاجتماعي و الاقتصادي في الب لاد، وبذلك يمكن القول من الناحية التاريخية أنه كان أشمل و أقرب إلى الحقيقة من الشعر الفني ، فبينما كان الشعر الفني شعر بلاط أو شعر نفس مهزومة، أو شعر مدائح نبوية و نحوها ، كان الشعر الشعبي يدون ما يجري في جميع المستويات تقريبا، ويصف ردود الفعل بآلة تسجيل أمينة "[25]، فالشعر الشعبي كان يحمل في طياته أحوال المجتمع الجزائري بكل تشكلاته، ظل يصوره تصويرا مشهديا حيا، صادقا لأن هؤلاء الشعراء عايشوا المرحلة الاستعمارية بما فيها من مآسي وما فيها من انتصارات أيضا، وحفظوا للوطن كرامته وكرامة أهله، وصانوا بألسنتهم عقيدته الإسلامية المتجذرة، ودافعوا عنها بكل حنكة وفطنة.

خاتمة:

عموما لقد ظل الشاعر الشعبي، وفي مختلف المقاومات الشعبية الجزائرية، يتغنى بالأبطال والانتصارات ويتجاوب مع الأحداث الكبرى التي تمر بها البلاد، فكان يسارع إلى تسجيلها وتخليدها، وقد وصلتنا الكثير من القصائد التي تؤرخ للمقاومات الشعبية كمقاومة الأمير عبد القادر أو الشيخ بوعمامة وأولاد سيدي الشيخ....الخ، وسنقتصر على بعض الأمثلة فقط لأنه من غير الممكن التطرق إليها كلها لأن هذا الأمر يتطلب دراسة وافية ومستفيضة.

الهوامش

[1] – توفيق ومان، الثورة التحريرية في الشعر الشعبي الجزائري، فيسيرا للنشر، الجزائر 2012م، ص 22.

[2] – أحمد قنشوبة، الشعر الشعبي الجزائري، البداية ومراحله من المسيرة، مجلة الفنون الشعبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ع72-73، أكتوبر2006-مارس2007م، ص62.

[3]– عبد المالك مرتاض، في الامثال الزراعية دراسة تشريحية لسبعة وعشرين مثلا شعبيا جزائريا، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1987، ص6

[4]– مالك بحوص، ثورة أولاد سيد الشيخ، دار الغرب، وهران، 2004، ص15.

[5]– التلي بن الشيخ، دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة (1830-1945) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،1983 ، ص178.

[6]– المرجع السابق، ص99

[7]– أنظر : قصيدة عبد القادر الوهراني دخول الفرانصيص ، مجلة آمال (عدد خاص بالشعر الملحون) العدد4 نوفمبر/ ديسمبر 1969 إصدارات وزارة الثقافة والاتصال ، الجزائر، ص74 .

[8]– عبد المالك مرتاض، أدب المقاومة الوطنية في الجزائر(1830-1962)، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر2003، ص85.

[9]- عبد القادر خليفي، الشعر الشعبي البطولي ودوره في وحدة المجتمع الجزائري ، أعمال الملتقى الوطني حول مظاهر وحدة المجتمع الجزائري من خلال فنون القول الشعبية (تيارت 13-14 أكتوبر2002) إصدارات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر،ص147.

[10]- العربي بن عاشور، أشعار محمد بلخير شاعر الشيخ بوعمامة وبطل المقاومة ، دار الشروق للطباعة والنشر والتوزيع ،. د/ط الجزائر ، ص149.

[11]- أحمد حمدي، ديوان الشعر الشعبي، شعر الثورة المسلحة، منشورات المتحف الوطني للمجاهد،الجزائر، د ت، ص5-6.

[12]- التلي بن الشيخ، دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة (1830-1945)، ص 98.

13- لتلي بن الشيخ، دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة (1830-1945)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،

14- التليبنالشيخ، دراساتفيالأدبالشعب، المؤسسةالوطنيةللكتابالجزائر، 1989، ص85.

15- عبد القادر بن البشير خليفي، المأثور الشعبي لحركة الشيخ بوعمامة ، رسالة دكتوراه ، قسم اللغة العربية وآدابها ، جامعة وهران، مخطوط2001/2000، ص396.

16 -BoualemBessaih. Etendard interdit. Poèmes de guerre et l'amour de Mohamed Belkhir. Préface de Jacque Berque. Edition bilingue. La bibliothèque Arabe Sindibad. Paris. 1976. P138.

[17]- عبد القادر بن البشير خليفي، المأثور الشعبي لحركة الشيخ بوعمامة ، رسالة دكتوراه ، قسم اللغة العربية وآدابها ، جامعة وهران، مخطوط2001/2000، ص395، 396.

18- منير البصكري، الشعر الملحون في أسفي، منشورات مؤسسة دكالة عبدة للثقافة والتنمية، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2001م، ص17.

19- قاسمعبدهقاسم،بينالتاريخوالفلكلور،ص129.

20 - أحمد قنشوبة، الشعر الشعبي الجزائري، البداية ومراحل من السيرة، ص62.

21- أنظر : قصيدة عبد القادر الوهراني دخول الفرانصيص ، مجلة آمال (عدد خاص بالشعر الملحون) العدد4 نوفمبر/ ديسمبر 1969 إصدارات وزارة الثقافة والاتصال ، الجزائر، ص74 .

22- منير البصكري، الشعر الملحون في أسفي، ص144.

23- عبد القادر خليفي، الشعر الشعبي البطولي ودوره في وحدة المجتمع الجزائري، أعمال الملتقى الوطني حول مظاهر وحدة المجتمع الجزائري من خلال فنون القول الشعبية، تيارت 13-14 أكتوبر 2002م، ص 157-158.

24- قاسمعبدهقاسم،بينالتاريخوالفلكلور،عينللدراساتوالبحوثالإنسانيةوالاجتماعية،مصر،ط2، 1998 ،ص6.

25- أبوالقاسمسعدالله-تاريخالجزائرالثقافي،ج 2 - ،المؤسسةالوطنيةللكتاب،ط2- 1985 ،ص325.

المصادر والمراجع:

1- توفيق ومان، الثورة التحريرية في الشعر الشعبي الجزائري، فيسيرا للنشر، الجزائر 2012

2- مالك بحوص، ثورة أولاد سيد الشيخ، دار الغرب، وهران، 2004

3- عبد المالك مرتاض، في الامثال الزراعية دراسة تشريحية لسبعة وعشرين مثلا شعبيا جزائريا، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1987

4- أحمد قنشوبة، الشعر الشعبي الجزائري، البداية ومراحله من المسيرة، مجلة الفنون الشعبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ع72-73، أكتوبر2006-مارس

5- التلي بن الشيخ، دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة (1830-1945) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،1983

6- التليبنالشيخ، دراساتفيالأدبالشعب، المؤسسةالوطنيةللكتابالجزائر، 1989

7- مجلة آمال (عدد خاص بالشعر الملحون) العدد4 نوفمبر/ ديسمبر 1969 إصدارات وزارة الثقافة والاتصال ، الجزائر

8- عبد المالك مرتاض، أدب المقاومة الوطنية في الجزائر(1830-1962)، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر2003

9- عبد القادر خليفي، الشعر الشعبي البطولي ودوره في وحدة المجتمع الجزائري ، أعمال الملتقى الوطني حول مظاهر وحدة المجتمع الجزائري من خلال فنون القول الشعبية (تيارت 13-14 أكتوبر2002) إصدارات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر

10- عبد القادر بن البشير خليفي، المأثور الشعبي لحركة الشيخ بوعمامة ، رسالة دكتوراه ، قسم اللغة العربية وآدابها ، جامعة وهران، مخطوط2001/2000

11- منير البصكري، الشعر الملحون في أسفي، منشورات مؤسسة دكالة عبدة للثقافة والتنمية، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2001م

12- أحمد قنشوبة، الشعر الشعبي الجزائري، البداية ومراحل من السيرة

13- أبوالقاسمسعدالله-تاريخالجزائرالثقافي، ج 2 - ،المؤسسةالوطنيةللكتاب،ط 1985 2

14- قاسمعبدهقاسم،بينالتاريخوالفلكلور،عينللدراساتوالبحوثالإنسانيةوالاجتماعية،مصر،ط2، 1998 ،

15- عبد القادر خليفي، الشعر الشعبي البطولي ودوره في وحدة المجتمع الجزائري، أعمال الملتقى الوطني حول مظاهر وحدة المجتمع الجزائري من خلال فنون القول الشعبية، تيارت 13-14 أكتوبر 2002م

16- BoualemBessaih. Etendard interdit. Poèmes de guerre et l'amour de Mohamed Belkhir. Préface de Jacque Berque. Edition bilingue. La bibliothèque Arabe Sindibad. Paris. 1976